# الانتماء في شعر حاتم الطّائيّ وتطوّره
# قراءة أدبيّة نقديّة

**د. يونس إبراهيم موسى أبو مصطفى**

أستاذ مشارك / قسم اللغة العربية / كليّة التّربية / جامعة بنغازي

**الملخّص:**

أدرك حاتم الطّائي بفطرته السّليمة ظاهرة الانتماء، وفي ذلك تأكيد على وجود الشّعور القومي عند العرب في عصر ما قبل الإسلام، وقد طوّر هذا الانتماء بطريقته الإنسانية الباحثة عن الأفضل في إطار الالتزام بالميثاق الأخلاقي النّابع من الفخر بمكارم الأخلاق.

تهدف هذه الدّراسة إلى الوقوف على مظاهر الانتماء عند حاتم، والمتمثّلة في الانتماء النّسبي والمكاني، والسّياسي والاجتماعي، والدّيني، ومحور ذلك كلّه انتمائه الصّادق إلى قومه، النّابع من اعتزازه بهم، واعتزازهم به، وحبّه لهم، وحبّهم له، فقد أكسبوه بهذا الانتماء عزّة ومنعة جعلته سيّداً مطاعاً شامخ الرّأس، يسعى إلى وحدة قبيلته وقوّتها، لتعيش في عزّة وكرامة في مدرسة الأخلاق التّربوية الّتي تربّى فيها وعلّمته صدق الانتماء.

**Summary:**

Hatem Al-Taie (a pre-Islamic era poet) realized، with his normal instinct، the growth of national belongingness phenomenon in the Arabs of his time. Further، he studied and developed the concept of national belongingness in a humanistic research method. His aim was to come up with the best findings in terms of being committed to the convention of good moral pride of Arabs.

This study is carried out to identify the belongingness aspects that were lied down by Hatem Al-Taie. It is concluded، in this study، that Hatem Al-Taie was in mutual love with his tribe. He and his tribe were so proud of each other. Thus، he belonged to them socially، politically and religiously. The truthful belongingness that Hatem showed made his people see him as a man of honor and respect. He was also thought of as a leader who sought the unity and strength of his tribe to make them live with dignity in the school of ethics where he was raised and taught the true belongingness.

## المقدّمة

الحمد لله الّذي له العزّة والجبروت، وبيده الملك والملكوت، والصّلاة والسّلام على سيّدنا محمّد النّبي العربي المرسل رحمة للعالمين، ومناراً للسّائلين، وهادياً للضّالين.

**أهمية الموضوع:**

الانتماء ظاهرة إنسانيّة فطريّة تربط بين مجموعة من النّاس المتقاربين، والمحدّدين زماناً ومكاناً بعلاقات تشعرهم بوحدتهم، وتمايزهم تمايزاً يمنحهم حقوقاً، ويحتّم عليهم واجبات، وهو متطوّر بالإرادة الإنسانيّة الباحثة عن الأفضل.

**سبب الاختيار:**

كان حاتم مثالاً مشرّفاً للانتماء الصّادق، النّابع من قلبه المفعم بالحبّ، والالتزام بالميثاق الأخلاقي في عصره؛ لذا تمّ اختيار هذا الموضوع للوقوف على مظاهر الانتماء، وتطوّره عنده.

**الحدود المكانية والزّمانية:**

أعالي بلاد الحجاز، حيث أقامت قبيلة الشّاعر، منذ أن كان في مقتبل عمره سنة (٥٦٩) تسع وستين وخمسمائة تقريباً، إلى وفاته قبل البعثة المحمّدية.

**الخطة:**

يحتوي البحث على تمهيد، وثلاثة فصول، يسبقها مقدّمة، ويليها خاتمة، وثبت للهوامش، والمصادر والمراجع.

كان التّمهيد عن مفهوم الانتماء، وتناول الفصل الأوّل الانتماء النّسبي والمكاني، إذ اعتزّ حاتم بنسبه الصّريح، وانتمائه إلى قبيلته طيء العربيّة اليمانيّة القحطانيّة.

وتطرّق الفصل الثّاني إلى الانتماء السّياسيّ والاجتماعيّ، وكان محور هذا الفصل حبّه لقومه وحبّهم له، ورغبته الأكيدة في حياة كريمة آمنة لقومه، فقد بذل كلّ ما يملك من أجلهم، ودافع عنهم وقت السّلم والحرب.

وتحدّث الفصل الثّالث عن انتمائه الدّينيّ، إذ كان يدين بدين ارتضاه، فرض عليه ميثاقاً آمن به، وتفاعل هذا الميثاق والميثاق الأخلاقيّ الّذي فُطر عليه.

ورصدت الخاتمة أهم النّتائج التي توصّل إليها البحث.

**أهم المصادر التي اعتمد عليها البحث:**

أفاد البحث من مصادر ومراجع عدّة، لعلّ أهمها ديوان حاتم، والانتماء في الشّعر الجاهليّ للدّكتور اسليم فاروق أحمد.

**أهم الصّعوبات التي واجهت البحث:**

واجهت البحث صعوبات عدّة، لعلّ أهمها الاعتماد على المصادر الالكترونية.

**منهجية البحث:**

اعتمد البحث على المنهج الوصفي، لدراسة ظاهرة الانتماء في شعر حاتم، من خلال القيام بوصف هذه الظّاهرة بطريقة علميّة، ومن ثمّ الوصول إلى تفسيرات منطقيّة لها دلائل وبراهين تساعد على وضع أُطر محدّدة للمشكلة، وصولاً إلى تحديد نتائج البحث.

الله نسأل التّوفيق والسّداد، وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت وإليه أنيب.

## التمهيد

**مفهوم الانتماء:**

جاء في لسان العرب "النَّماءُ: الزّيادة، نَمَى يَنْمِي نَمْياً ونُمِيّاً ونَمَاءَ: زاد وكَثُر، وربما قالوا يَنْمُو نُمُوّاً" (ابن منظور (نمى)، ب. ت، ١٥ / ٣٤١)، وجاء في القاموس المحيط (نَمَا) يَنْمُو نُموّا، ... كنَمَى يَنْمي نَميًّاَ ونُميّا ونَماءً ونميّة "، (الفيروز أبادي (نمى)، ٢٠٠٨، ص ١٦٥٤) وفي أساس البلاغة: "ومن المجاز فلان ينمّيه حسبه، وقد نماه جدّ كريم، قال النّابغة:

إلى صَعبِ المَقادَةِ ذي شَريسٍ　　　نَماهُ في فُروعِ المَجدِ نامِ

(الزّمخشري (نمى)، ١٩٩٨، ٢ / ٣٠٦، النّابغة، ١٩٩٨، ص ١٦٥).

جد المنذر هو النّامي: أي الرّافع منزلة المنمي، وذلك أنّ المجد يكون في الآباء المتقدّمين في الشّرف، والمجد يشمل النّسب والحسب، ونميه هي زيادة في المنزلة ورفعة الشّأن.

إنّ لفظة الانتماء مصدر انتمى ينتمي تحمل معاني أصليّة في ظاهرة الانتماء، منها الارتفاع بالانتساب إلى الأجداد والأمجاد.

جاء في لسان العرب: "انْتَمَى فلان إلى فلان إذا ارتفع إليه في النّسب" (ابن منظور (نمى): ب. ت، ١٥ / ٣٤٢)، والانتساب إلى الأجداد هو الرّابطة الرّئيسة في ظاهرة الانتماء، وعظمة الأجداد الأماجد ترفع منزلة أبنائهم وتمنحهم الثّقة الدّافعة إلى الفخر والاعتداد بالنّسب وبالآباء والأجداد، وثمّة معانٍ أخرى هي: الإبعاد في المرمى، وتقريب الشّيء إلى الشّيء، والهمّة العالية، والارتفاع من مكان إلى آخر والانكسار، وتبليغ الحديث على وجه الإساءة (ابن منظور (نمى)، ب. ت، ١٥ / ٣٤٢ - ٣٤٣، الزّمخشري (نمى)، ١٩٩٨، ٢ / ٣٠٦، اسليم، ١٩٩٨، ص ٢٢ - ٢٤).

لقد أظهرت معاني لفظة الانتماء إدراك الجاهلي بأنّ الأصل في الانتماء الزّيادة والكثرة الماديتان، ولكنّ الجاهليّ طوّر ذلك الأصل اللّغوي، فعبرّ به عن الجبر والاختيار، وعن التّنوع في إطار الوحدة، وعن معانٍ إنسانية أخرى تؤكّد ظاهرة الانتماء، وترفع

شأن الإنسان بصفته منتمياً إلى رابطة إنسانيّة معيّنة، وقد تطوّرت تلك المعاني الإنسانية تطوّراً يوافق حقيقة التّطور في هذه الظّاهرة (اسليم، ١٩٩٨، ص ٢٢ – ٢٥).

وقد رأى فرج عبد القادر: "أنّ الانتماء يعني بالمستوى الشّكلي أكثر من عنايته بالمضمون الجوهري التّلقائي، بمعنى أنّ الفرد قد يكون عضواً في جماعة، ومحسوباً عليها، إلا أنّه لا يرضى معاييرها، ولا يتوحّد بها، ولا يشاركها ميولها واهتمامها، فهو ينتمي إليها شكلاً، وليس قلباً، وفي هذه الحالة يصبح منتمياً إلى هذه الجماعة في حين يكون ولاؤه لجماعة أخرى، أو لزعيم آخر، أو لمبدأ مغاير للجماعة المنتمي إليها" (طه وآخرون، ب. ت، ص ٦٨).

لذا يجب على المرء أن يثبت أنّه يعتني بالمضمون الجوهري بأن يكون صادقاً في ولائه قولاً وفعلاً، وأن يعتزّ بانتمائه ويتفانى من أجله لذا "يرغب الفرد عادة في الانتماء إلى جماعة قويّة يتقمّص شخصيتها ويوجد نفسه بها كالأسرة أو النّادي أو الشّركة أو المصنع ذي المركز الممتاز" (بدوي، د. أحمد زكي، ب. ت، ص ٣٩.) حتى يرتفع ويكسب الثّقة بأصالة انتمائه، وبقدرته على الإبداع، والصّبر في الملمّات، وتجاوز الصّعاب والأخطار.

جاء في لسان العرب "كل ارتفاع انتماء" (ابن منظور (نمى)، ب. ت، ١٥ / ٣٤٢)، فهل كلّ انتماء ارتفاع؟! وهل ارتفع حاتم الطّائيّ بانتمائه النّسبيّ والمكانيّ، والسّياسي والاجتماعيّ، والدّينيّ؟

"كان حاتم من شعراء العرب، وكان جواداً يشبه شعره جوده، ويصدق قوله فعله، وكان حيثما نزل عُرف منزله، وكان مظفّراً، إذا قاتل غَلَب، وإذا غَنِمَ أنهَب، وإذا سُئِل وهب، وإذا ضرب بالقداح فاز، وإذا سابق سَبَق، وإذا أُسر أطلق، وكان يُقسم بالله ألا يقتل واحد أمه" (الأصفهاني، ١٩٩٢، ١٥ / ٣٦٦).

لقد تألّق نجمه في سماء الجزيرة العربية، وسما إلى رايات المجد واحتواها، وسجّل بحروف من نور أسمى الدّروس في التّربية والأخلاق، ومُنِح الثّقة بجدارة، واستحق السّيادة والرّيادة، وضرب أروع الأمثلة في صدق الانتماء العربيّ وأصالته.

## الفصل الأوّل

## الانتماء النّسبيّ والمكانيّ

عاش العربي في فضاء زماني ومكاني واحد، في ظروف سياسيّة واجتماعيّة ودينيّة وثقافيّة متشابهة إلى حدّ كبير وإن تعدّدت الانتماءات وتنوعت الأفكار، والشّاعر في ظلّ مجتمع قبلي تقدّس العصبية القبلية، يعتزّ بها، وحدتهم وحدة الزّمان والمكان، واللّغة وإن اختلفت اللّهجات، ووحدة الدّم والنّسب العريق.

دافع شاعر القبيلة عن قبيلته بلسانه وسيفه البتّار، وسجّل أيامها وانتصاراتها، وافتخر بأصالة الحسب والنّسب، وهجا الخصوم للنّيل منهم وإضعاف قدراتهم الماديّة والمعنويّة.

إذا حاولنا رصد الوجود الإنساني الجاهلي المتعدّد الانتماءات، لتعدّد أنشطته وأصوله، وتنوع أفكاره ومشاعره، فإنّنا نقف أمام عدة انتماءات في هذا العصر.

عاش حاتم الطّائي في هذا العصر سيّداً كريماً، صريح النّسب، ثاقب الفكر، شاعراً شعره ينطق بشخصيّته الّتي توافرت فيها شروط السّيادة والقيادة سياسيّاً واجتماعيّاً واقتصاديّاً.

إنّ الحديث عن الانتماء عنده يدور في فلك الانتماء النّسبيّ الصّريح والمكانيّ، والانتماء الاجتماعيّ والسّياسيّ، الانتماء الدّينيّ.

**أولاً: الانتماء النَّسبيّ:**

كان مجتمع ما قبل الإسلام مجتمعاً قبليّاً يؤمن إيماناً راسخاً بالعصبيّة القبليّة، والأصل في العصبية أن تُبنى على وحدة الدّم وعلى لُحمة النّسب، وقد علّل ابن خلدون ذلك بقوله: "وذلك أنّ صلة الرّحم طبيعي في البشر، إلا في الأقل، ومن صلتها النّعرة على ذوي القربى وأهل الأرحام أن ينالهم ضيم، أو تصيبهم هلكة، فإنّ القريب يجد في نفسه غضاضة من ظلم قريبه أو العداء عليه، ويودّ لو يحول بينه وبين ما يصله من المعاطب والمهالك، نزعة طبيعية في البشر مذ كانوا..." (ابن خلدون، ١٩٨٧، ص ١٢٨).

واللافت للانتباه أنّ العصبية في المجتمع القبلي لا تكون لقرابة الرّجل وذوي رحمه الأقربين فحسب، وإنّما تكون للقبيلة بأسرها، على تفاوت شدّة هذه العصبيّة تحدّده

درجات القرابة في إطار القبيلة الواحدة، فالعصبيّة لذوي الرّحم أقوى منها للبُعداء؛ لذا كانت التّبعات الّتي فرضتها العصبيّة كالثّأر، ولم يُخِل هذا التّفاوت في وحدة القبيلة، فالعصبيّة القبليّة تضم جميع أفراد القبيلة في إطار واحد، وتفرض عليهم حقوقاً وواجبات مشتركة، وكلّ واحد في القبيلة يشعر أنّه مسؤول عن كلّ فرد ينتمي إليها (يُنظر، النّص، ١٩٦٣، ص ١٠٥).

إنّ القبيلة تستند في تشكيل الولاء وصياغة أبجدياته إلى هذه الخارطة الوراثية من منطلق أنّ القبيلة حالة بيولوجية ورابطة عصبية ترتقي تلقائياً إلى "رابطة سيكولوجية واجتماعية، ليشكل بُعدها إطار تنظيمي تتأطر فيه فاعليات الأفراد، تحت تأثير عوامل موضوعية متداخلة متشاركة هي المسؤولة عن هرم القبيلة" (الجابري، ١٩٩٢، ص ١٩٣).

لقد كانت رابطة الدّم والنّسب قوام المجتمع القبلي الجاهلي، والنّسب الصّريح عند العرب أن ينتمي المرء إلى سلسلة نسب قبلي متعارف عليهما من جهتي الأب والأم، فصراحة النّسب تكتسب بالأبوة والأمومة العربيتين معاً، لذا افتخر العربيّ بالنّسب الصّريح من جهة الأب والأم، فالانتماء إلى الأمّ الحرّة الحصان المنجبة المربيّة هو الوجه الآخر لاعتدادهم بالانتماء إلى آبائهم، فالأم الحرّة هي ضمان صحة الانتساب إلى الآباء والأجداد.

لقد سما حاتم بالانتساب إلى آبائه وأجداده وارتقى إلى سلم المجد ورفعة الشّأن بكلّ ثقة واقتدار.

إنّه "حاتمُ بنُ عبد الله بن سعد بن الحشرج بن امرئ القيس بن عدي بن أخزم، واسمه هزومة بن ربيعة بن جرول بن ثعل بن عمرو بن الغوث بن طي" (الأصفهاني، ١٩٩٢، ١٧ / ٣٦٣، ويُنظر ابن كثير، ٢٠٠٦، ٢ / ٢٢٦)، أمّه عتبة (غنية) بنت عفيف بن عمرو ابن امرئ القيس، يُروى عنها خبر واحد، لكنّه قوي الدّلالة يبيّن فضل شاع في آل حاتم وتناهى إلى غايته عند حاتم.

كانت (أمّه) ذات يسار سخيّة اليد، لا ترد سائلاً، وكانت لا تُليق شيئاً تملكه (يُنظر، الأصفهاني، ١٩٩٢، ١٧ / ٣٦٥. وابن قتيبة، ١٩٥٨، ١ / ٢٤٢)؛ لذا زعم الطّائيون أنّ حاتماً

أخذ الجود عنها (يُنظر، الميداني، ١٩٥٥، ١ / ١٨٣) وحظي بنسب أصيل صريح من ناحية أمّه يمنحه الثّقة.

مات والده وهو صغير، وقام بتنشئته جدّه سعد بن الشّرح، حتى إذا اشتدّ وذهب في الجود مذهبه ضيّق عليه جدّه وهجره واعتزله، يقول حاتم (من الطّويل):

وَما ضَرَّني أَن سارَ سَعدٌ بِأَهلِهِ ... وَأَفرَدَني في الدارِ لَيسَ مَعي أَهلي

سَيَكفي اِبتِنايَ المَجدَ سَعدَ بنِ حَشرَجٍ ... وَأَحمِلُ عَنكُم كُلَّ ما حَلَّ مِن أَزلي

(الطّائي، ١٩٨٦، ص ٦٧، الأول: الضيق والشّدّة)

ويبدو أنّ والده (عبد الله) توفي وحاتم صغير جدّاً في سن لا تغني شيئاً، فليس في شعره إشارة إلى أبيه، أو فخر به، بل يذكر جدّه سعداً، ويفتخر بانتمائه إليه، وبنوته له، بل يذكر أن جده هو (حشرج)، كأنّ نسبه هو حاتم بن سعد بن الحشرج، يقول (من الرّجز):

أنا المُفِيدُ حَاتِمُ بِنْ سَعْدِ ... أَوْرَثَنِي المَجْدُ بُنَاةُ المَجْدِ

أُعْطِي الجَزِيلَ وأَوفي بالعَهْدِ ... أَبِي وَجَدِّي حَشْرَجُ ذُو الوَفْدِ

(الطّائي، ب. ت، ص ٢٦٠)

هنا يذكر أباه لأنّه أورثه المجد، فإنّ كان ماجداً يعني أنّ أباه كذلك، ولكنّ الغريب في الأمر أنّ حاتماً لم يذكر شيئاً من أفعال أبيه في المجد، ومن المؤكّد أنّه سمع الكثير من أفعال أبيه وأخباره.

لقد اكتفى بالافتخار بجدّه، ربما لأنّه

تَدارَكَني جَدّي بِسَفحِ مَتالِعٍ ... فَلا تَيأَسَنْ ذو قَومِهِ أَن يُغَنَّما

(الطّائي، ١٩٨٦، ص ٧٧)

لقد ورث المجد من بناة المجد آبائه وأجداده، الّذين سمّوا في الأقدمين، وفي ذلك اعتداد صريح بالانتماء إلى النّسب الصّريح أبوّة وأمومة معاً، وهو حريص على المحافظة على أفعال الآباء، فهي أمجاد يحرص الأبناء على إعلان وراثتها بكل فخر، يقول حاتم:

وَكَمْ لِيمَ آبائي فَمَا كَفَّ جُودُهُم ... مَلام ومِنْ أَيْدِيَهم خُلِقَتْ يَدي

(الطّائي، ب. ت، ص ٢٤٥)

إنّه يعلّم الأبناء المحافظة على ميراث الأجداد بخطى ثابتة، وفي ذلك حرص على صدق الانتماء إلى القبيلة والعشيرة الأقربين.

اعتزّ حاتم بقومه ونسبه الصّريح وحافظ على كرامتهم وفداهم بنفسه، يقول (من الطّويل):

فَكَكتَ عَدِيّاً كُلَّها مِن إسارِها ... فَأَفضِل، وَشَفِّعني بِقَيسِ بنِ جَحدَرِ
أَبوهُ، أَبي وَالأُمَّهاتُ أُمَّهاتُنا ... فَأَنعِم فَدَتكَ النَّفسُ قَومي، وَمَعشَري

(الطّائي، ١٩٨٦، ص ٤٩)

إنّ إقامة حاتم بين قومه أكسبته المنعة والقوّة، لذا لم يعطِ الملوك ظلامة مادام وسط أهله وعشيرته (من الطّويل):

وَأَقسَمتُ، لا أُعْطِي مَليكاً ظُلامَةً ... وَحَولي عَدِيٌّ، كَهلُها وَغَريرُها
أَبَتْ لِيَ ذاكُم أُسرَةٌ ثُعَلِيَّةٌ ... كَريمٌ غِناها، مُستَعِفٌّ فَقيرُها

(الطّائي، ١٩٨٦، ص ٥٥)

إنّه الإحساس بأنّ التّناصر بين أبناء النّسب الأبوي يمنح الشّعور بالأمن والأمان، وإحساس صريح النّسب بأنّ عصبيته هي ملاذه، كان دافعاً له إلى تقوية صلاته بها؛ حتّى يجازي الإحسان بالإحسان، ولحرص حاتم على وأد الخلافات، وتصنّع الحلم أحياناً في قوله (من الطّويل):

تَحَمَّل عَنِ الأَدنَينَ، وَاِستَبقِ وُدَّهُم ... وَلَن تَستَطيعَ الحِلمَ حَتّى تَحَلَّما

(الطّائي، ١٩٨٦، ص ٧١)

وقد قابل السّيئة بالحسنة في أبيات نُسبت إليه (من الطّويل):

وَعَوراءَ أَهداها امرُؤٌ مِن عَشيرَتي ... إِلَيَّ وَما بي أَن أَكونَ لَها أَهلا
وَأَجزيهِ بِالحُسنى إذا هي زجيت ... إِلَيَّ وَلا أَجزي بِسَيِّئَةٍ مِثلا

(الطّائي، ب. ت، ص ٢٩٩)

إنّ سلوك الحلم لا يعني ذلاً وضعفاً، بل هو إحساس بعمق العلاقة بين أبناء القبيلة وبخاصّة بعضها إلى بعضها الآخر، وبتساويهم في المنزلة، لذا أكثر حاتم من الفخر بالتّغاضي عن هفوات أبناء عمومته؛ لأنّه يشعر بتساوي أبناء الجماعة الأبوية في المنزلة، يقول:

إِذَا أَنَـا لَـمْ أَرَ ابـن الـعَـمِّ فَـوْقِـي فَـإِنِّي لا أَرَى ابـن الـعَـمِّ دُوْنِي

(الطّائي، ب. ت، ٢٧٦)

لقد كان يملك إحساساً عالياً بالمسؤولية تجاه أقاربه يؤكّد من خلاله صدق انتمائه، فكانت رغبته في الإصلاح بين أبناء قبيلته سبباً في موقف جلب له الفساد، فهجاه زيد الخيل الطّائي، ولكنّه لم يأبه لذلك، إذ إنّ موقفه نابع من تصوّر لعاقبة الحرب بين الأقارب، ولاعتقاده بأنّ نصرة الأقارب ليست واجبة إنّ كان القريب طالب النّصرة ظالماً، وفي ذلك يقول (من الطّويل):

تَبَغَّ اِبنَ عَمِّ الصِّـــدقِ، حَيـثُ لَقيتَـهُ فَـإِنَّ اِبنَ عَمِّ السَّـــوءِ، إِن سَرَّ يُخلَفُ

وَأَغـفِـرُ، إِن زَلَّـت بِمَـولايَ نَـعـلَـةٌ وَلا خَـيرَ في المَولى، إِذا كـانَ يُـقـرِفُ

سَـــأَنصُرُـهُ إِن كـانَ لِلحَقِّ تـابِعـاً وَإِن جـارَ لَـم يَـكـثُرُ عَـلَيَّ الـتَـعَـطُّـفُ

وَإِن ظَلَموهُ قُمـتُ بِـالسَّـــيفِ دونَـهُ أَنصُرَـــهُ إِنَّ الضَّـــعـيـفَ يُـؤَنَّـفُ

(الطّائي، ١٩٨٦، ص ٦٠ – ٦١، ٧٢)

إنه يؤسّس قيماً جديدة تهذب سلوك المنتمين وتدعوهم إلى إحقاق الحقّ، وإقامة العدل؛ لذا كان صاحب النّسب الصّريح إذا نزل بأبناء عمّه يلقى الرّعاية والعناية، يقول حاتم مفتخراً بذلك (من الطّويل):

وَلا يُلطَمُ اِبنُ العَمِّ، وَســطَ بُيوتِنـا وَلا نَتَصَـــبّى عِرسَـــهُ، حينَ يَغفُـلُ

(الطّائي، ١٩٨٦، ص ٦٨)

وفي ذلك تأكيد على توازن المنتمين إلى النّسب الأبوي الصّريح، فهم متماثلون في السّلوك والمشاعر والقيم والأهداف، يدافعون عن انتمائهم ويحبّونه، ويعيشون به وله،

يتفيّأون ظلال المحبّة والمودّة والاحترام، بعيداً عن السّخاء والبغضاء والسّبّ والشّتم، يقول حاتم (من الطّويل):

وَلا أَخـذِلُ المَولى، وَإِن كـانَ خـاذِلاً وَلا أَشـتُمُ اِبنَ العَمِّ، إِن كانَ مُفحَما

(الطّائي، ١٩٨٦، ص ٧٢) ويقول (من الوافر):

وَمـا مِنْ شـيمَتي شَـتمُ اِبنِ عَمّي وَمـا أَنـا مُـخـلِـفٌ مَـن يَـرتَـجـيـنـي

سَـأَمـنَـحَـهُ عَـلى الـعِـلّاتِ، حَـتّـى أَرى مـاوِيِّ، أَن لا يَشـتَـكـيـنـي

(الطّائي، ١٩٨٦، ص ٨٢)

وفي ذلك كشف لنفسيته حاتم، وحرصه على غرس هذه المبادئ، وتلك القيم في أرض طيّبة لتسود روح الأخوّة والمودّة والمحبّة بين المنتمين لأفراد العشيرة الأقربين، وفي ذلك تهذيب لسوك المنتمين في مدرسة المكارم والأخلاق.

إنّه حريص على العدل، وقد نأى بنفسه عن الانتهازية واستغلال الفرص لتحقيق مآرب سلبية، يقول (من الطّويل):

وَلا أَظلِمُ اِبنَ العَمِّ، إِن كـانَ إِخوَتي شُـهوداً، وَقَد أَودى بِإِخوَتِهِ الدَهرُ

(الطّائي، ١٩٨٦، ص ٤٣)

وهو بذلك يؤسّس قيماً جديدة تهذّب سلوك قومه، وتحافظ على كرامتهم وعزّتهم.

كان أوس بن سعد قال للنّعمان بن المنذر أنا أدخلك بين جبل طي حتّى يدين لك أهلها، أي يريد أن يذل قوم حاتم بالهزيمة، فقال حاتم (من الكامل):

وَلَـقَـد بَـغَـى، بِـجِـلادِ أَوسٍ، قَـومُـهُ ذُلّاً وَقَـد عَـلِـمَـتْ، بِـذَلِـكَ سِـنـبِـسُ

حـاشـا بَني عَمْروِ بنِ سِـنبِسَ، إِنَّهُم مَـنَـعـوا ذِمـارَ أَبـيـهِـم، أَن يَـدنَسـوا

وَتَـواعَـدوا وِرْدَ الـقُـرَيَّـةِ غُـدْوَةً وَحَـلَـفـتُ بِـاللَّـهِ الـعـزيـزِ لَـنُـحـبَسُ

(الطّائي، ١٩٨٦، ص ٥٦)

إذلال قوم حاتم غير وارد في قاموسه، فهو يرفض ذلك جملة وتفصيلاً، يؤكّد على ذلك بحلفه بالله العزيز أن يمنع من تسول له نفسه ذلك، ويدرك أنّ قومه قادرون على

الدّفاع عن شرفهم وعرضهم من أي دنس، فهذا واجب مقدّس يمليه عمق انتمائه لقومه، ويكشف عن نفسية كريمة عزيزة ترفض الضّيم وتقدس عمق الانتماء.

يُلاحظ أنّ حاتماُ قد حلف بالله العزيز، ممّا يؤكّد أنّ الأمر جدّ خطير، كما يلاحظ أن استخدام كلمة "زمار أبيهم" ويعني بذلك حمى القبيلة بأسرها، وفي ذلك توسعة لدائرة الانتماء، الانتماء إلى القبيلة، والدفاع عن حماها من أن يدنس.

إنّ الأصول الكريمة التي تورث عن الآباء تتأصل في نفسية الكريم، تأبى عليه أن ينبو أي نبوة خوفاً من مذمات الحديث وتشويه السّمعة للسّيد الكريم، يقول حاتم (من الطّويل):

وَإِنّي لَمَذمومٌ إذا قيلَ حاتِمٌ نَبا نَبوَةً إِنَّ الكَريمَ يُعَنَّفُ
سَآبى وَتَأبى بي أُصولٌ كَريمَةٌ وَآباءُ صِدقٍ بِالمَوَدَّةِ شُرِّفوا

(الطّائي، ١٩٨٦، ص ٦١ - ٦٢)

نسب عربي صريح لشخصيّة سياديّة كريمة تستمد أصولها من شجرة طيبة أصلها ثابت، تغذيها مكارم الأخلاق وعراقة النّسب والانتماء الصّادق للعشيرة الأقربين.

إنّه الاعتقاد بأنّ جمال المرء يكمن في أصوله الزّكية، وأفعاله الكريمة، وفي ذلك رسم لمفهوم الولاء القبلي وأهميته، ومدى حاجة الإنسان إليه، بوصفه ضرورة ثقافية وسياسية واجتماعية، يضمن حياة الفرد، ويحتضن حريته وتطلعاته وحقوقه، فَتُرسي قواعد النّظام الاجتماعي والسّياسي، الّذي من شأنه حماية الذّمار، وتحقيق الحياة الكريمة الآمنة للأفراد المنضوين تحت عباءة المجتمع القبليّ.

**ثانياً: الانتماء المكاني:**

شهد عصر ما قبل الإسلام مرحلة متطوّرة في العلاقة بين الجاهليّ والمكان الّذي يعيش عليه، وقد تمثّل في اصطلاح الجاهليين على وجود مدى طبيعي وجغرافي تمتلكه كل قبيلة من الجماعات الأبوية (يُنظر، اسليم، ١٩٩٨، ص ١٩٣، وما بعدها)

وقد تميّز العربيّ في هذا العصر بتمجيده لقبيلته وكان ولاؤه صادقاً؛ لأنّه ولد فيها ونشأ بين رجالها وربوعها وأيامها المجيدة؛ لذا كان الانتماء إلى المكان (الأرض) من أقوى أشكال الانتماء؛ إذ ينشأ الأفراد في قبائلهم على علاقة وطيدة بجغرافيتهم الحُبلى

بمخزون تاريخهم وثقافتهم وواعيتهم الجماعيّة، فعبر اكتشاف المكان يمكن للمرء أن يكتشف ذاته؛ لأنّ دلالة الإنسان الوجوديّة مرتبطة أساساً بالمكان (يُنظر، الجابري، ١٩٩٢، ص ١٩٣) الذي نشأت فيه ذاته.

ينتمي حاتم إلى قبيلته طي العربيّة اليمانيّة القحطانية حيث يرجع نسب طي واسمه جهلمة بن أد ابن زيد بن يشجب بن عرين بن زيد بن كهلان بن قحطان، وهي من القبائل التي عُرفت بجماجم العرب لكثرة بطونها (يُنظر، الكلبي، ١٩٨٨، ص ٢١٣ وما يليها)، وكانت منازل طي بعد هجرتها من بلاد اليمن عند جبلي (أجا وسلمى) في أعالي بلاد الحجاز، وبالتّحديد عند الجبلين (يُنظر، الحموي، ١٩٧٧، ١/ ٩٤ وما يليها).

اعتزّ بقبيلته، ودافع عنها، وحافظ على كرامتها وشرفها، كان أوس بن سعد قال للنّعمان بن المنذر: أنا أدخلك بين جبلي طي، حتى يدين لك أهلها، فبلغ ذلك حاتماً فقال أبياتاً أقسم فيها بالله على الحفاظ على ذمار أبيهم أن يدنّس (ذُكرت الأبيات في الانتماء النّسبي، ص ٧، يُنظر، الطّائي، ١٩٨٦، ص ٥٦).

عاش حاتم سيّداً لقبيلته، محبّاً لها معتزّاً بها، مؤمناً بقدسيّة مكان قبيلته، فهو يدرك أنّ الانتماء إلى المكان (الأرض) من أقوى أشكال الانتماء، إذ نشأ مع أفراد قبيلته على علاقة وطيدة بجغرافيتهم الحُبلى بمخزون تاريخهم وثقافتهم، فاكتشف ذاته عبر اكتشاف المكان الّذي نشأ فيه، لكنّه رحل عنه فترة من الزّمن، لم يكن رحيله لفقر أو افتقار إلى مباهج الحياة، أو استثمار لأموال أو لإبعاد من قبيلته، إنّه اعتزال سياسيّ، وذلك زمن حرب الفساد وما كان هذا الاعتزال إلا تعبيراً عن عمق صلته بقبيلته وحبّه لها، ورغبته الأكيدة في سعادتها واستقرارها وحفاظاً على أمجادها ومكانتها بين القبائل.

جاور حاتم بني زياد في زمن الفساد، وكانت حرب الفساد في عصر ما قبل الإسلام بين جديلة والغوث بني زياد بن عبد الله من بني عبس، فأحسنوا جواره، فمدحهم معبّراً عن صدق ولائه لهم، وللمكان الّذي رحل إليه، يقول (من الوافر):

لَعَمرُكَ، ما أَضاعَ بَنو زِيادٍ ذِمارَ أَبيهِمِ، فيمَن يُضيعُ

(الطّائي، ١٩٨٦، ص ٥٨)

وكذلك فعل عندما جاور بني بدر زمن احتربت جديلة وثعل يقول (من الكامل):

إن كُنتِ كارِهَةً مَعيشَتَنا هاتي، فَحُلّي في بَني بَدْرِ
جاوَرتُهُم زَمَنَ الفَسادِ، فَنِع مَ الحَيُّ في العَوصاءِ وَاليُسرِ
فَسُقيتُ بِالماءِ النُمَيرِ، وَلَم أَترُك أَواطِسَ حَمأَةِ الجَفرِ

(الطّائي، ١٩٨٦، ص ٤٧)

إنّ ارتحال الفرد، في الغالب تعبير غير مباشر عن الارتباط بالمكان الّذي تقطنه جماعته السّكانية، فالمرتحل يُنمّي بالارتحال شخصيته لتكون قادرة على الدّفاع عن الوطن والأهل (يُنظر، اسليم، ١٩٩٨، ص ٢٢٥) ممّا يؤكّد أنّ ارتحال حاتم كان من أجل مصلحة قبيلته والدّفاع عنها، ارتحال تبعه استقرار وإقامة كريمة.

ومع ذلك عانى حاتم من ارتحاله لشدّة شوقه وحنينه إلى قبيلته، فالحنين إلى الوطن لا تبعثه متاعب الاغتراب وظلم الأغراب، فقد يكون المغترب معزّزاً مكرّماً، ومشتاقاً إلى وطنه أيضاً؛ لذا ضرب حاتم خير مثال في إظهار العلاقة المتينة بين المغترب ووطنه، يقول، وهو في الحيرة مخاطباً جبلي طيء (من الطّويل):

فَقُلتُ: أَلا كَيفَ الزَمانُ عَلَيكُما فَقالا: بِخَيرٍ، كُلُّ أَرضِكَ سائِلُ

(الطّائي، ١٩٨٦، ص ٦٨)

وقال معبّراً عن حنينه إلى جبال طيء (من الطّويل):

حَنَنتُ إِلى الأَجبالِ، أَجبالِ طَيِّئٍ وَحَنَّت قَلوصي أَن رَأَت سَوطَ أَحمَرا
فَقُلتُ لَها: إِنَّ الطَّريقَ أَمامَنا وَإِنّا لَمُحْيُو رَبْعِنا إِنْ تَيَسَّرا
فَيا راكِبي عُلّيا جَديلَةَ، إِنَّما تُسامانِ ضَيماً، مُستَبيناً، فَتَنظُرا

(الطّائي، ١٩٨٦، ص ٣٩)

وقد أدرك حاتم أنّ الإقامة بعيداً عن أهله ووطنه توجب عليه أن يكسب بشرف، فهو يسعى إلى انتماء متطوّر يتجاوز الإطار الضّيق للانتماء إلى الجماعة الأبويّة، فالأرض ليست ملكاً لقبيلة أو ملك، إنّها أرض الله وللناس حقّ فيها، فقد أوجدها الله لتسكن، وليرتزق النّاس من خيراتها يقول (من البسيط):

فَارحَل فَإِنَّ بِلادَ اللَهِ ما خُلِقَت إِلّا لِيُسلَكَ مِنها السَهلُ وَالجَبَلُ

وابغ المكاســـبَ في أرض مطـالبهـا    من حيـث تحمـدُ حتى ينفـدّ الأجـلُ

(الطّائي، ب. ت، ص ٢٧٠)

يضاف هذا الانتماء إلى الانتماء النسبي، ويطوره ويمتد إلى الانتماء السياسي والاجتماعي، ليزداد الانتماء عنده تطوراً.

## الفصل الثّاني

## الانتماء السّياسيّ والاجتماعيّ

تتداخل السّمة الاجتماعية مع السّمة السّياسية في بعض الانتماءات الجاهليّة، بحيث يصعب الفصل بين السّياسي والاجتماعي عند الحديث عن الملوك والسّوقة، أو عن السّادة والمستضعفين، أو عن الأحلاف والجوار (يُنظر، اسليم، ١٩٩٨، ص ٢٧٠).

الملوك والسّوقة: تعارف العرب في عصر ما قبل الإسلام على وجود طبقتين منهم، هما: طبقة الملوك، وطبقة السّوقة، والسّوقة من النّاس هم "الرّعية ومن دون الملوك... والسّوقة من النّاس: من لم يكن ذا سلطان... وقيل أواسطهم" (ابن منظور، ب. ت، مادة (سوق).

كان من الطّبيعي أن يُعظم الشّعراء آنذاك الملوك، ولقد سعي سادة السّوقة بالرّفادة إلى الملوك لتحقيق مكاسب سياسية ترفع شأنهم، وتعزّز مكانتهم، لذا جعلوا من ملوك المناذرة والغساسنة حكّاماً يرجعون إليهم في خصومتهم، وتنافسوا في كسب ودّهم" (دقّة، ١٩٧٨، ص ٤٣)، وربمّا كانت هذه الرّفادة لاسترضاء الملوك واستخلاص أسراهم من أيديهم، كما فعل حاتم وسنبين ذلك لاحقاً.

ومع ذلك قاوم حاتم المتعصّبين إلى أنسابهم الصريحة والإذعان إلى إرادة الرّاغبين بإدخالهم تحت راية الانتماء إلى نظام ملكيّ يسوسهم، فقد تحدّى حاتم الإرادة الملكيّة بإظهار القوة الرّادعة لها، في قوله (من الطّويل):

وَأَقسَــمـتُ، لا أُعطي مَليكـاً ظُلامَـةً    وَحَولي عَـدِيٌّ، كَهلُهـا وَغَريرُهـا

(الطّائي، ١٩٨٦، ص ٥٥)

وفي ذلك درس سياسي بأسلوب قسم، فيه تأكيد على الاستقلال والحريّة، ورفض للقهر والاستبداد والهيمنة من مستعمر دخيل في مجتمع ما قبل الإسلام، مجتمع يعلّم المجتمعات والشّعوب الحاضرة دروساً خُلقيّة تربويّة سياسيّة.

السّادة والمسودون: التّسويد في القبيلة العربيّة معلم من معالم وجودها السّياسيّ، إذ لكلّ قبيلة سيّد يقودها، وكانت السّيادة حضوراً نفسيّاً يفرضه المسوّد على أبناء قبيلته فرضاً طوعياً، ويرى أبناء القبيلة هذا الحضور شعوراً بالأمان وإسناداً في الأمر لمن هو أهل له؛ لأنّ انتماء جماعة إنسانية إلى نسب أبوي متعارف عليه لا يعني تساوي أفرادها في المنزلة تساوياً مطلقاً.

وكان لزاماً على كلّ فرد أن يسهم في الحفاظ على هذا المجتمع البشري من خلال الإذعان للشّروط السّياسيّة والثقافيّة، بسبب ما يمليه القانون الأخلاقي الّذي سطّره الخيال الثّقافيّ والتاريخيّ للقبيلة.

هذا الإذعان إلى سلطة سياسيّة هو شعور غريزيّ بالانتماء يُشبع حاجات الأفراد الضّرورية ويحقّق مآربهم الاجتماعيّة، ويحفظ محيطهم الإنسانيّ من عدو خارجي، ويوطّد علائقهم الأسريّة، ويقلّص تفاوتهم الطّبقي؛ ما يعني أنّ الانتماء بهذه الخصوصيّة حالة وجوديّة، وضرورة إنسانيّة، و" مطلب طبيعيّ يَحقّ لكلّ فرد التّمتع به، لكونه يحقّق غايات إنسانيّة يبدأ بتحديد الهويّة لتصل إلى تحقيق الوجود الذاتي" (الصّافي، ٢٠١١، ص ١٥٢).

وكان لزاماً أن يكشف الرّؤية السّياسيّة لعمليّة تسويد المسوّد، وأركان هذه الرّؤية في إطار القبيلة، ونظامها الاجتماعيّ والاقتصاديّ والسّياسيّ والحربيّ.

وكان لحضور المسوّد المتميّز في محيطه أثر في اختياره وتسويده، وفي مقدّمة ذلك حضوره الأخلاقي والقيمي، وقدرته على كسب ودّ محيطه القبلي بما عُرف عنه من قيم ومُثل خُلقية.

إنّ بلوغ مرتبة السّيادة لم يكن أمراً هيناً، فالوصول إليها مشقة وعناء ومجاهدة النّفس، ولابد من توافر شروط في المسود، وينبغي عليه أنّ يؤمن إيماناً راسخاً بالقيم والمبادئ الّتي تربّى عليها المجتمع الجاهليّ من: شجاعة، وحلم، وتواضع، وعدل.

كان حاتم فارساً مقداماً، موفّقاً في فروسيته، قادراً على حماية قومه، وكان متواضعاً، ينفذ إلى قلوب أبناء قومه، وعادلاً لا يظلم أحداً.

ولعلّ القيمة الخُلقية الأكثر حضوراً في شخصية حاتم قيمة الكرم، فقد كشف من خلالها عن الجانب الإنساني في نفسه وسلوكه؛ لينال مكانة اجتماعيّة يمكن من خلالها أن ينال مكانة سياسيّة يطمح إليها، ألا وهي السّيادة على قومه، أو مكانة اجتماعيّة يُخلّد بها ذكره، وقد تحقّق له ذلك، فقد كان خليقاً بالسّيادة على قومه، وهذا يعني أنّ ثمّة علاقة جدلية واضحة بين الكرم والسّيادة، وقد كان حاتم واضحاً في تفسير هذه العلاقة، وهو يتحدّث عن نفسه، ويردّ على عذاله في الكرم، قائلاً (من الكامل):

يَقولونَ لي: أَهلَكتَ مالَكَ، فَاِقتَصِد ... وَ ما كُنتُ، لَولا ما تَقولونَ، سَيِّدا

(الطّائي، ١٩٨٦، ص ٣٤)

كما كان واضحاً عندما كشف عن غاية أخرى لكرمه أرادها فأدركها، وتبوأ مكانة اجتماعيّة مرموقة على مرّ الأيام والسّنين ألا وهي السّمعة الطّيبة، يقول مخاطباً ماوية (من الطّويل):

أَماوِيُّ إِنَّ المالَ غادٍ وَرائِحٍ ... وَيَبقى مِنَ المالِ، الأَحاديثُ وَالذِكرُ

وَإِنِّيَ لا آلو بِمالٍ، صَنيعَةٍ ... فَأَوَّلُهُ زادٌ، وَآخِرُهُ ذُخرُ

(الطّائي، ١٩٨٦، ص ٤٢)

قرّر أن يقاوم الفناء، وأن يخلّد نفسه بما يقوم به من أعمال تجعله مدار الأحاديث بين النّاس بعد موته، وكشف عن مرحلة متقدّمة من الوعي، وأدرك حقيقة الوجود الإنسانيّ المتناهي، واستشعر اللّحظة العابرة حيث اقتنع بأنّ خلود الإنسان لا يكون بمواجهة الموت أو الاستعلاء عليه، بل يكون بالعمل الّذي يخلّد الإنسان بعد موته، يقول (من الطّويل):

أَماوِيُّ ما يُغني الثَراءُ عَنِ الفَتى ... إِذا حَشرَجَت نَفسٌ وَضاقَ بِها الصَّدرُ

تَريْ أَنَّ ما أَهلَكتُ لَم يَكُ ضَرَّني ... وَأَنَّ يَدي مِمّا بَخِلتُ بِهِ صَفرُ

(الطّائي، ١٩٨٦، ص ٤٢)

لقد واجه الموت بهذا الكرم، لأنّه يخلّد ذكره، وقد كان له ما أراد، وصدقت نبوءته، فكان مثلاً شارداً في الجود تتناقله الأجيال (ينظر، رومية، ١٩٧٨، ص ٢٧٨ ـ ٢٧٩).

كان على وعي أخلاقي قادر على استصدار قوانين حكميّة تكون نبراس العقل الأخلاقيّ، ذلك أنّ" العقل الأخلاقي في الموروث العربيّ مفتوح على الحكمة" (الجابري، ١٩٩٢، ص، ١٠٦).

استحوذ حاتم على قلوب قومه، وأنشأ علاقة قويّة بينهم؛ ليؤكّد على أنّ السّيادة مرهونة بالكرم، وفي ذلك امتداد لعمق انتماء حاتم لقومه، وحبّه لهم، ورغبته الأكيدة في إنفاق ماله في مساعدة المحتاجين والمستجيرين به، وفي قضاء حقوق ضيوفه، لتتجلّى مروءته في أسمى معانيها من أجل الإنسانيّة، وهذا يعني أنّ الكرم كان ميداناً واسعاً تبارى فيه كرماء القوم بعطائهم، والأكثر جوداً كان خليقاً بالسّيادة، وفي ذلك تأكيد على أنّ السّيادة ليست إرثاً، بل اصطفاءً واختياراً يقع على من يتفوّق بالقدرة على قيادة قومه نحو الأفضل، يقول حاتم:

أَسَـــوِّدُ ذا الـفـعــال ولا أبـالي ... عــلى أن لا أَسَّـــودُ كُـفِـيـتُ

(الطّائي، ب. ت، ص ٢٥٧)

نظرة عميقة ثاقبة تكشف عن نفسيّة قياديّة تسعى إلى مصلحة قومه في ظل قبيلة قويّة متماسكة تختار السّيد الأفضل، إذ لا مانع عنده من إعطاء السّيادة لسيد آخر من قومه يتفوّق عليه في الأفعال المجيدة.

وتزداد هذه النّظرة عمقاً وتتّسع دائرة الانتماء الصّادق لقومه، فهو لن يتخلى عنهم إذا اختاروا سيّداً غيره، بل يدافع عنهم في الشّدائد ويحافظ على أعراضهم (من الطّويل):

أُسَـــوَّدُ ســـاداتِ ا لعَشـــيرَةِ عـارِفـاً ... وَمِن دونِ قَومي في الشَـــدا ئِدِ مِذوَدا

وَأَ لفى لِأَعراضِ ا لعَشـــيرَةِ حـا فِظـاً ... وَحَـقِّــهِـمِ حَـتّـى أَكـونَ المُسَـــوَّدا

(الطّائي، ب. ت، ص ٣٣)

ولن يكتفي بذلك، وسيظل مدافعاً عنهم باذلاً الغالي والنّفيس من أجل الحصول على السّيادة باقتدار، وفي ذلك فليتنافس السّياسيون الحكماء، الذين يؤثرون مصلحة

البلاد والعباد على مصالحهم الشّخصيّة، ويسعون لبناء مجتمع مثالي يظهر العلاقة الحقيقيّة بين السّيد والمسود.

يبدو أنّ كرم حاتم في المدرسة الإنسانية امتّد إلى مدرسة السّياسة والدّولة، وإن لم يكن هناك دولة، سياسية نابعة من فكر عميق، وانتماء صادق، وإيمان راسخ بقيم خُلقية أصيلة متأصّلة، تناشد العربي الأصيل، صاحب النّسب العريق أن يرفض الذّل بأنواعه وأشكاله، ولا يقبل الضّيم مهما كان السّبب.

إذا كان" مفهوم الولاء قد ارتبط قديماً بالسّلطة والحرب" (الصافي، ٢٠١١، ص ٦٣)، فإنّ حاتم يؤكّد هذه الرّؤية الّتي تجمع الولاء للقبيلة مقروناً بالصّراع والحرب، يقول مفتخراً بشجاعته وشجاعة قبيلته (من الطّويل):

وَخَيلٍ تَعادى لِلطِّعانِ شَهِدْتُها ... وَلَو لَم أَكُن فيها لَساءَ عَذيرُها

وَغَمرَةِ مَوتٍ لَيسَ فيها هَوادَةٌ ... يَكونُ صُدورَ المَشرَفيِّ جُسورُها

صَبَرنا لَها في نَهكِها وَمُصابِها ... بِأَسيافِنا، حَتّى يَبوخَ سَعيرُها

(الطّائي، ١٩٨٦، ص ٥٤ – ٥٥)

كان لزاماً عليه أن يدافع عن القبيلة وقت الحرب، وينفق أمواله وقت السّلم بصفته سيّداً.

أغنياء وفقراء: كان الفقر عاملاً مشتركاً بين طبقات المستضعفين في هذا العصر، والغِنَي شرط رئيس للسّيادة، ويعدّ ذلك تعبيراً عن بلوغ المجتمع مرحلة متقدّمة من التّطوّر الاقتصادي، أسهمت في ظهور انتماءات جديدة نافست الانتماء النّسبي، وطوّرته، فالنّسب الصّريح، والمؤهلات تتراجع أمام الغِنَي (يُنظر، د. إسليم، ١٩٩٨، ص ٣١٣).

حاتم الطّائي صريح النّسب، سيد كريم، يملك ثروة هائلة، لكنه ينفقها فيصبح فقيراً، يقول (من الطّويل):

وَعِشْتُ مَعَ الأَقوامِ بِالفَقرِ وَالغِنَى ... سَقاني بِكَأسَي ذاكَ كِلتَيهِما دَهري

(الطّائي، ١٩٨٦، ص ٣٨)

ويقول (من الطّويل):

عُنينا زَماناً بِالتَّصَعلُكِ وَالغِنَى كَما الدَّهر، في أَيّامِهِ العُسرُ وَاليُسرُ

(الطّائي، ١٩٨٦، ص ٤٣)

وآثر حاتم وهذه الحالة أن يكرم نفسه عن ذل السّؤال بالصّبر على الفقر يقول:

إذا قَلَّ مالي أَو أُصبتَ بِنَكبَةٍ قَنَيتُ حَيائي عِفّةً وَتَكَرُّما

(الطّائي، ب. ت، ص ٢٨٧)

تحلّى بمكارم الأخلاق الّتي جُبل عليها وتأصّلت في نفسه، وترجمها قولا وفعلاً، لذا أحبّه قومه، ورضوا به سيّداً، فأحبّهم وقام بأمرهم، وتكفّل بقضاء حاجاتهم، وحافظ على كرامتهم مروءة وشهامة، يقول (من الطّويل):

وَإِنّي لَأَقْري الضَّيفَ، قَبلَ سُؤالِهِ وَأَطعَنَ قِدماً، وَالأَسِنَّةُ تَرعُفُ

(الطّائي، ١٩٨٦، ص ٦١)

وزاد قدر حاتم عند قومه أنّهم ما دعوه إلا لبّى، وما استصرخوه إلا أغاث، يقول (من الطّويل):

وَداعٍ دَعاني دَعوَةً، فَأَجَبتُهُ وَهَل يَدَعُ الدّاعينَ إِلّا المُبَلَّدُ

(الطّائي، ١٩٨٦، ص ٢٩)

لأنّه كان يدرك أنّ الرّزق من عند الله، لذا بسط يديه كلّ البسط، وأنفق بلا حساب، وكلّف نفسه فوق طاقتها (من الطّويل):

وَإِنّي لَأُعطي سائِلي، وَلَرُبَّما أُكَلَّفُ ما لا أَستَطيعُ، فَأَكلَفُ

(الطّائي، ١٩٨٦، ص ٦١)

وما أكثر ما تكلّف في سبيل قومه وما أكثر ما جاروا عليه، فقد ذُكر أنّ جارته جاءته وصبيتها يتعاوون من الجوع فذبح لها فرسه، وهي أعزّ ما يملك (يُنظر، الخبر في الأصفهاني، ١٩٩٢، ١٧ / ٣٦٦).

وذكر أنّه وفد على النّعمان بن المنذر، فأكرمه، وزوّده عند انصرافه حملين ذهباً وورقاً، وطرائف بلده، وعندما عاد إلى قومه، سمح لهم بأن يأخذوا ما بين يديه، فوثب

القوم فأنهبوا ما معه، ولم يتركوا له شيئاً، ولم ينكر عليهم، بل كان راضياً مغتبطاً، وتكرّر منهم ومنه حتى أنهب ثلاث عشرة مرة (ابن بكّار، ١٩٧٢، ص٤٢١).

المحافظة على العهد والوعد، وعفّة النّفس، والطّباع من صفات السّادة الذين يهتمون بالرّعية، ويسعون إلى المحافظة على مجدّها وعظمتها.

صاحب هذه النّفسيّة سعى جاهداً لفك أسرى قومه، لمّا أطلق النّعمان الغساني بني عبد الشّمس إكراماً لحاتم، وبقي قيس بن جحدر بن ثعلبة بن عبد وهو من لخم، وأمه من بني عدي، وهو جدّ الطّرماح بن حكيم بن نفر بن قيس بن جحدر، فقال له النعمان: أفبقي أحد من أصحابك؟ فأنشد حاتم هذين البيتين (من الطّويل):

فَكَكْتَ عَدِيّاً كُلَّها مِن إسارِها ... فَأَفضِلْ، وَشَفِّعني بِقَيسِ بنِ جَحدَرِ

أَبوهُ أَبي، وَالأُمَّهاتُ أُمَّهاتُنا ... فَأَنعِم فَدَتكَ النَّفسُ، قَومي وَمَعشَري

(الطّائي، ١٩٨٦، ص ٤٩)

ولمّا أسر النّعمان الغسانيّ سبعين رجلاً من بني أخزم رهط حاتم دخل عليه حاتم فأنشده أبياتاً.

فأعجب به، واستوهبهم منه، ففك أسرهم (الطّائي، ١٩٨٦، ص٥٩ - ٦٠).

بذل ماله من أجل فك الأسرى المعذّبين،

يُفَكُّ بِهِ الْعاني، وَيُؤكَلُ طَيِّباً ... وَما إِن تُعَرّيهِ القِداحُ وَلا الخَمرُ

(الطّائي، ١٩٨٦، ص ٤٣، ٢٩، الأصفهاني، ١٩٩٢، ١٧ /٣٩٠)

وكذلك عتق العبيد، كان يأمر عبيده لإيقاد النّار ليلاً، بخاصّة في اللّيالي شديدة البرودة لجلّب الضّيوف لتقديم حقّ الضّيافة، فإنّ جلّبت النّار ضيفاً، فموقد النّار سينال حريته، يقول (من مشطور الرّجز):

أَوقِد، فَإِنَّ اللَّيلَ لَيلٌ قَرٌّ ... وَالرّيحَ يا موقِدُ ريحٌ صِرٌّ

عَسى يَرى نارَكَ مَن يَمُرُّ ... إِنْ جَلَبَت ضَيفاً، فَأَنتَ حُرٌّ

(الطّائي، ١٩٨٦، ص ٥٠)

والعجيب في الأمر أنّ هذا السّيد كان عبداً لضيفه مادام ثاوياً (من الطّويل).

وَإِنّي لَعَبدُ الضَّــيفِ، ما دامَ ثاوِياً　　　وَما فيَّ، إِلّا تِلكَ، مِن شــيمَةِ العَبدِ

(الطّائي، ١٩٨٦، ص ٣٥)

بسط هذا الرّهشوش (النّدي النّفس، الكريم النّفس) بلا روية وأتلف ماله بلا حساب، وبذل بلا حدود؛ ليصون عرضه، فالتّضحية بالمال أهون من التّضحية بالعرض، أكّد على ذلك في غير مرّة، قال مخاطباً عاذلة تلومه (من الطّويل):

ذَريني يَكُن مـالي لِعِرضِيَ جُنَّـةً　　　يَقي المـالُ عِرضي، قَبلَ أَن يَتَبَـدَّدا

(الطّائي، ١٩٨٦، ص ٣٣، وينظر، ص ٦٢، ٦٧)

أغدق هذا الفيّاض على الجميع، بخاصّة أقاربه ذوي المتربة حفاظاً على صلة الرّحم، يقول مخاطباً زوجه نوار (من البسيط):

لا تَعذِليني عَلى مالٍ، وَصَلتُ بِهِ رَحْماً　　　وَخَيرُ سَــبيلِ المالِ ما وَصَــلا

(الطّائي، ١٩٨٦، ص ٦٥)

أسلوب حكمي نابع من قناعته بأنّه ينفق لأهداف إنسانيّة سامية، حفاظاً على صلة الرّحم، ورغبة في الحفاظ على كرامة ذوي القربى والنّسب الصّريح، ممّا يدل على تداخل الانتماءات وتطوّرها، وصولاً إلى انتماء متكامل.

وكانت مواقده دائماً منصوبة، وقدوره على الأثافي موضوعة، في الفضاء غير محجوبة، ونيرانه مكشوفة، وإبله لإشارته مرهونة (من الطّويل):

وَما تَشــتكي قِدري، إذا الناسُ أَمحَلَت　　　أُؤَثِّـفُـهـا طَـورا، وَطَـوراً أُمـيرُهـا

وَأُبرِزُ قِـدري بـا لفَضـــاءِ، قَليلُها　　　يُـرى غَـيرَ مَضــنـونٍ بِـهِ، وَكَـثيرُهـا

وَإِبـلِيَ رَهْـنٌ أَن يَـكـونَ كَـريمُـهـا　　　عَقيراً، أَمـامَ البَيـتِ، حينَ أُثيرُهـا

وَلَـيسَ عَـلى نـاري حِجـابٌ، يَكُـنُّـهـا　　　لِمُســتَوبِصٍ لَـيلاً، وَلَـكِن أُنـيرُهـا

(الطّائي، ١٩٨٦، ص ٥٤)

وهذا يعني أنّه كان يُطعم الغريب والقريب، والقاصي والدّاني، والغني والفقير، وفوق ذلك كلّه لم يسمح لنفسه مسّ مشاعر الطّفولة البريئة، وإهدار كرامة الّذين

يحسبهم الجاهل أغنياء من التّعفّف، فقد كان خيره يصل إلى هؤلاء دون أن يتحمّلوا مذلّة السّؤال.

إنّه الحقّ المعلوم للسّائل والمحروم، أدركه بفطرته السّليمة، وربما بانتمائه إلى دين سماوي، ودعم اقتصادي، وتكامل اجتماعي، ليحطم الفوارق الاجتماعية من أجل حياة كريمة للمرء بين عشيرته ومجتمعه، إنّها الفطرة السّليمة التي فطر الله ﷻ الخَلق عليها، والعادات والتّقاليد، والقيم والمبادئ الّتي أكّدها الإسلام، ونمّاها وطوّرها لتصل إلى النّضج والكمال؛ لأنّها موصولة بالكمال الإلهي المطلق، إنّه المجتمع العربي القبليّ نواة الأمة الواحدة بقيادة المصطفى ×.

ويزداد هذا الانتماء تطوّراً وعمقاً عندما يقترن الكرم بالعفة، حفاظاً على كرامة الجارة في ثنائية متناغمة، إنّه يغضّ بصره عن جاراته، ويُعطّل سمعه عن سماع حديثهن، يقول (من الطّويل):

وَما ضَرَّ جاراً، يا اِبنَةَ القَومِ، فَاِعلَمي
بِعَينَيَّ عَن جاراتِ قَومِيَ غَفلَةٌ وَفي السَّمعِ مِنّي عَن حَديثِهِمِ وَقرُ

(الطّائي، ١٩٨٦، ص ٤٣، وينظر، ص ٢٢، ٢٤، ٥٤)

ولن يلج دار جاره في غيبته، ولكنّه يرسل لعياله ما يحتاجونه (من الطّويل):

وَما تَشتَكيني جارَتي، غَيرَ أَنَّها إِذا غابَ عَنها بَعلُها، لا أَزورُها
سَيَبلُغُها خَيري، وَيَرجِعُ بَعلُها إِلَيها، وَلَم يُقصَر عَلَيَّ سُتورُها

(الطّائي، ١٩٨٦، ص ٥٤، وينظر، ص ٦٨)

وأقسم - ربما بالله الكبير المتعال - مؤكّداً على عفّته ومهارته (من الطّويل):

فَأَقسَمتُ، لا أَمشي إِلى سِرِّ جارَةٍ مَدى الدَّهرِ، ما دامَ الحَمامُ يُغَرِّدُ

(الطّائي، ١٩٨٦، ص ٢٩)

ولعلّ ذلك أحسن ما قيل في اقتران الكرم بالعفّة في عصر ما قبل الإسلام، ويدل ذلك على شدّة الحياء والدّعة والورع، وهما فضيلتان من فضائل العفّة، فالحياء انحصار النّفس خوف إتيان القبائح، والحذر من الذّم والسّب الصّادق، والدّعة هي سكون النّفس

عن حركة الشّهوات، والورع هو لزوم الأعمال الجميلة الّتي فيها كمال النّفس (يُنظر، ابن مسكويه: ١٩٨٢، ص ٢٠ – ٢١).

الجوار: اتّسعت دائرة الانتماء عنده إلى دائرة أوسع، تمثّل ذلك في الإشادة بمن حلّ عندهم عندما اعتزل قومه سياسيّاً في حرب الفساد، والاعتراف بفضلهم، والثّناء على مكارم أخلاقهم، ونبل معاملتهم، فقد جاور بني زياد بن عبد الله من بني عبس، فأحسنوا حواره، فقال (من الوافر):

لَعَمرُكَ، ما أَضاعَ بَنو زِيادٍ ... ذِمارَ أَبيهِمِ، فيمَن يُضيعُ

بَنو جِنِّيَّةٍ وَلَدَت سُيُوفاً ... صَوارِمَ كُلُّها ذَكَرٌ صَنيعُ

وَجارَتُهُم حَصانٌ ما تُزَنّى ... وَطاعِمَةُ الشِّتاءِ، فَما تَجوعُ

شَرى وُدّي وَتَكرِمَتي جَميعاً ... لِآخِرِ غالِبٍ، أَبَداً رَبيعُ

(الطّائي، ١٩٨٦، ص ٥٨)

إنّه الوفاء وحسن الثّناء، والود والكرم، وامتداد الانتماء ليشمل من جاورهم، فكأنّهم جزء لا يتجزّأ من قومه، ثناء على الدّفاع عن حماة قبيلتهم، فكأنّهم سيوف صوارم، ونساؤهم عفيفات كريمات.

يُلاحظ هنا أيضاً لجوءه إلى القسم، واستخدام" ذمار أبيهم "والاستعانة بالتّشبيه" ولدت سيوفاً صوارم "، إذ شبّه فرسان قبيلته بني زياد بالسّيوف الصّوارم، وفي ذلك تأكيد توضيح لعمق العلاقة بينه وبين بني زياد، واحتراماً لمقامهم الرّفيع، وحسن جوارهم، وكشفاً لنفسيّة هذا الجواد الوفيّ.

وتتسع دائرة فضاء الانتماء عندما جاور بني بدر زمن الفساد، فقال في مدحهم (من الكامل):

إِن كُنتِ كارِهَةً مَعيشَتَنا ... هاتي، فَحُلّي في بَني بَدْرِ

جاوَرتُهُم زَمَنَ الفَسادِ، فَنِعـ ... ـمَ الحَيُّ في العَوصاءِ، وَاليُسرِ

(الطّائي، ١٩٨٦، ص ٤٧)

جاور كرماء واقتدح من زنادهم، إنّهم نعم الحي في السّرّاء والضّراء، على كلّ حال من سحيل ومبرم:

فَسُـــقـيـتُ بِـالمـاءِ الـنُّـمَـير، وَلَـم أَتــرُك أَواطِـسَ حَـمْأَةِ الـجَـفـرِ

وَدُعــيــتُ في أولي الـنَّـدِيِّ وَلَـم يُــنـظَــر إِلَيَّ بِــأَعــيُنٍ خُــزرِ

أكرموه ونعموه، ودعوه في أولى منتداهم ومجلسهم وكأنّه واحد منهم، بل من أفضلهم، وهو السّيد الكريم، لذا أثنى على شجاعتهم، فهم يضربون ضرب الرّقاب، وخيلهم تجري.

الضّـــارِبـينَ لَـدى أَعِـنَّـتِـهِـم الـطّـاعِـنـينَ، وَخَـيـلُـهُـم تَـجـري

وأشاد بمساواتهم بين أفراد قبيلتهم حَسَنِهم ورديئهم، غنيهم وفقيرهم:

وَالخـالِطينَ نَحيتَهُم بِنُضـــارِهِم وَذوي الغِنى مِنهُم بِذي الفَقرِ

وهو بذلك يؤسّس لمجتمع مثالي تسوده المحبّة والمودة والوئام بين أفراده على مختلف مستوياتهم وأطيافهم وألوانهم، وكأنّه يريد مجتمعاً يلعن الطّبقية، ويدعو إلى المساواة الّتي دعا إليها الإسلام، فهذه نظرة عميقة ثاقبة من سيد كريم تهمّه مصلحة القبيلة وتماسكها، بل تماسك المجتمع بأسره، وهذا يؤكّد على أنّ الانتماء إلى القبيلة لا يلغي الانتماء إلى المجتمع؛ لأن القبيلة جزء من كلّ، والكلّ يشمل الجزء ولا يلغيه.

كما بالغ في إكرام من يستجير به، بخاصّة وقت المحل، يقول (الطّائي، ب. ت، ص ٢٦٩):

إذا كـان لي شـــيئـانِ يـا أُمَّ مـالـكٍ فـإنَّ لـجـاري مِـنْـهُـما مـا تَـخَـيَّرا

وفي واحـدٍ إن لم يَـكُـنْ غَـيرَ واحـدٍ أراهُ لَـهُ أَهْـلاً وإن كـنـتُ مُـقْـتِرا

## الفصل الثّالث

## الانتماء الدّينيّ

الدّين ضرورة اجتماعيّة، وحتميّة وجوديّة، يلجأ إليه الإنسان بحثاً عن علل لتفسير الظّواهر الطّبيعيّة المحيطة به، والعرب في عصر ما قبل الإسلام، مثل سائر الأمم كانت

لهم انتماءات عقيديّة، وثقافات دينيّة مختلفة، كانوا على دين واحد، دين إبراهيم ﷺ، دين الحنفية، ودين التّوحيد، إنّما ضلوا السّبيل فعبدوا الأصنام والأوثان، إذ عُرِف هذا العهد بالعهد الوثنيّ، فقد عبد كثير منهم الأصنام والأوثان، وكان اتّخاذهم الأصنام على أنّها وسائط وشفاعات تقربهم إلى الله ﷻ، قال تعالى: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ سورة الزمر، آية: ٣، وكان يحيى بن حارثة بن عمرو بن عامر الأزدي أوّل من غير دين إسماعيل ﷺ فنصب الأوثان (يُنظر، الكلبي، ١٩٩٥، ص ٨، وطقوس، ٢٠٠٩، ص ٢٧٣) غير أنّ بعض العرب سخر من الأصنام واستهزأ بها (يُنظر، الكلبي، ١٩٩٥، ص ١٧، والجبوري، ١٩٩٣، ص ٦٨-٦٩).

وقد ترفّع بعض العرب عن عبادة الأصنام والأوثان، وكانوا يتطلّعون إلى دين التّوحيد، دين إبراهيم ﷺ على أنّه الدّين المبرّأ من الشّرك، وقد عُرفت تلك الفئة بالأحناف، ودينهم بالحنفيّة، وكانوا قد اعتزلوا الأوثان وحرّموا الميتة والدّم والذّبائح الّتي تُذبح على النّصب لغير الله (يُنظر، ابن هشام، ٢٠٠٢، ١ / ١٣٥. والكلبي، ١٩٩٥، ص ٢١ – ٢٢).

ولم تكن الحنفية امتداداً أو تقليداً لليهودية أو النّصرانية، بل لم تكن بين الدّيانتين، والحنفية صلة أو وشيجة، ولم يكن إبراهيم ﷺ من اليهود أو النّصارى، قال تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا﴾، أي" متحنّفاً عن الشّرك قاصداً إلى الإيمان" (ابن كثير: ٢٠٠٦، ١ / ٥٩٢).

وفي ذلك تأكيد على أنّ الإسلام والحنفيّة على شرعة واحدة شرعة التّوحيد والإيمان بالله الواحد الأحد، وقد شهد عصر ما قبل الإسلام أدياناً أخرى غير الوثنيّة واليهوديّة والنّصرانيّة، ولم يكن لأتباع هاتين الدّيانتين كبير الأثر في الجاهلية، إذ لم تستطع أيّة منهما أن تقضي على الوثنية.

لقد تعدّدت الدّيانات في هذا العصر وتنوعت، لذا تعدّدت انتماءات العربي بتعدّد الأديان التي آمن بها، وبتنوعها.

إنّ الحديث عن هذه الدّيانات نابع من أنّ الدّين فطرة إنسانيّة تلبّي حاجة الإنسان إلى الاستقرار، وتسهم في تكوينه العقلي، وفي توجيه سلوكه، وبذلك يغدو المنتمون إلى

دين واحد متقاربين في أفكارهم ومشاعرهم وسلوكهم تقارباً تزداد أواصره بتشابه ظروفهم الموضوعيّة.

لقد أفاض د. اسليم في حديثه عن ديانات العرب في هذا العصر، وبيّن بعد الإشارة إلى تعدّد دياناتهم، وتنوع فرقهم الدّينية أنّ انتماءاتهم الدّينية لها آثار عميقة في نفوسهم، وفي تطوير حياتهم، ويكاد توزيع دياناتهم أن يتطابق مع توزيعهم النّسبيّ والجغرافيّ، ممّا يوحي بإسهام دياناتهم في إقامة حدود تفصل بين القبائل وتعوق تواصلها، ويُقوي هذا الإيحاء بذلك تعدّد انتماءات المشركين الدّينيّة بتعدّد فرقهم وأصنامهم، ومع ذلك كان التّعصب الدّينيّ بعيداً عن تفكيرهم الجاهليّ وسلوكه، فقد كانت حريّة الاعتقاد سمة رئيسة بين المنتمين إلى ديانات مختلفة، ممّا يؤكّد معرفتهم بالتّسامح الدّينيّ، واتفاق أغلبهم على إحلال السّلام في أشهر معلومة، وأماكن محدّدة، وفي ذلك تطوير لانتماءاتهم، وتجاوز لرابطة الانتماء النّسبيّ بخاصّة (يُنظر، اسليم، ١٩٩٨، ص ٤٠٢ وما بعدها).

بعد هذا العرض، هل كان حاتم يهودياً أم نصرانياً، أم كان موّحّداً بطبعه أي سليم الفطرة، أم كان حنيفاً مسلماً، أم كان وثنيّاً يعبد الأصنام والأوثان؟

ذكرت بعض المصادر أنّه كان يدين بالنصرانيّة، فقد عدّه لويس شيخو من شعراء النّصرانيّة قبل الإسلام (يُنظر، لويس شيخو: ١٩٨٠، ١/ ٩٨، وذكر ابن قتيبة: "أنّ عديّ بن حاتم كان نصرانيّاً "ابن قتيبة، ١٩٥٨، ص ١١٤. وكان عدي سليم الفطرة" يُنظر، الكلبيّ: ١٩٩٥، ص ٥٩ – ٦١)، وذكر د. مفيد قميحة في مقدمة ديوان حاتم أنّ حاتماً كان على علم بالأديان السّابقة، وربما على صلة ببعضها، فقد قيل أنّه كان نصرانيّاً، وأنّ النّصرانيّة كانت معروفة في قومه (الطّائي، ١٩٨٦، ص ١٨).

ذُكر أنّ سفانه ابنة حاتم عندما وقعت في الأسر قالت: "يا محمّد، هلك الوالد، وغاب الوافد؛ فإن رأيت أن تخلّي عني، فلا تشمت بي أحياء العرب؛ فإنّي بنت سيّد قومي، كان أبي يفكّ العاني، ويحمي الذّمار، ويقري الضّيف ويشبع الجائع، ويفرج عن المكروب، ويطعم الطّعام، ويفشي السّلام، ولم يردّ طالب حاجة قط؛ أنا بنت حاتم طيّ.

فقال لها رسول الله ﷺ: يا جارية، هذه صفة المؤمن، لو كان أبوك إسلاميّاً لترحمّنا عليه، خلّوا عنها؛ فإنّ أباها كان يحب مكارم الأخلاق، والله يحب مكارم الأخلاق"

(الأصفهاني، ١٩٩٢، ١٧ / ٣٦٥)، وفي رواية أخرى "لو كان أبوك إيمانيّاً..." (ابن كثير، ٢٠٠٦، ٢٢٧/٢)، أي يدين ويؤمن بدين سماويّ.

يعني أنّه لا يؤمن بدين سماوي، أي لم يكن يهودياً ولا نصرانياً ولم يكن حنيفاً مسلماً، بل ربّما كان وثنيّاً مشركاً يعبد الأصنام والأوثان، وإن لم يظهر في ديوانه أنّه كان يفعل ذلك، وهذا يعني أنّه ربما كان سليم الفطرة، موحّداً بطبعه، ثم عبد الأصنام والأوثان، لكنه يقول في ديوانه (من الوافر):

وَذي وَجهَينِ، يَلقاني طَليقاً ... وَلَيسَ، إذا تَغَيَّبَ، يَأتَسيني

نَظَرتُ بِعَينِهِ، فَكَفَفتُ عَنهُ ... مُحافَظَةً عَلى حَسَبي وَديني

(الطّائي، ١٩٨٦، ص ٨٢)

أيتحدّث عن دين النّصرانيّة؟!

لقد أقسم بالله عالم الأسرار ومحيي العظام البيض وهي رميم، يقول (من الطّويل):

أَما وَالَّذي لا يَعلَمُ الغَيبَ غَيرُهُ ... وَيُحيّ العِظامَ البيضَ، وَهيَ رَميمُ

لَقَد كُنتُ أَطوي البَطنَ، وَالزادُ يُشتَهى ... مَخافَةَ، يَوماً، أَن يُقالَ لَئيمُ

(الطّائي، ١٩٨٦، ص ٧٦)

يعني هذا أنّه آمن بالبعث والحساب، فالله ﷻ يحيي الخَلق بعد موتهم، وإن كانوا عظاماً، في حين أنكر كثير من العرب في عصر ما قبل الإسلام البعث والنّشور، وإحياء الموتى، وآمن بأنّ الرّزق من عند الرّحمن، كما ذُكرنا سابقاً (الطّائي، ١٩٨٦، ص ٣٤)، وقد أكثر من ذكر لفظ الجلالة (الله) في ديوانه (الطّائي، ١٩٨٦، ص ٢٣ – ٣٤، ٦٤ – ٦٦)، وأقسم ببيت الله (من الطّويل):

وَدِدتُ، وَبَيتِ اللَهِ، لَو أَنَّ أَنفَهُ ... هَواءٌ، فَما مَتَّ المُخاطَ عَنِ العَظمِ

(الطّائي، ١٩٨٦، ص ٧٩)

وذكر ابن الأعرابي أنّه كان يقسم بالله ألا يقتل واحد أمه (الأصفهاني، ١٩٩٢، ١٧ / ٣٦٦، ابن قتيبة، ١٩٥٨، ١ / ٢٤١)، وكان يُعطي ابتغاء وجه الله – إن صحت نسبة الأبيات له – إذ يقول (من الطّويل):

فَلَو كانَ ما يُعطي رِياءً لَأَمسَكَت ... بِهِ جَنَباتُ اللَّومِ، يَجذِبنَهُ جَذبا

وَلَكِنَّما يَبغي بِهِ اللهَ وَحدَهُ ... فَأَعطِ فَقَد أَربَحتَ في البَيعَةِ، الكَسبا!

(الطّائي، ١٩٨٦، ص ٢٣)

أغلب الظّن أنّ الأبيات منسوبة لحاتم، فهي تتنافى مع قول الرسول × إذ قال عديّ بن حاتم للرّسول ×: إنّ أبي كان يصل الرّحم ويفعل كذا وكذا، فقال له: "إنّ أباك أراد أمراً فأدركه" (الإمام أحمد بن حنبل، ب، ت، ٤ / ٢٥٨)، يعني الذّكر والسّمعة الطّيّبة، وفي رواية أخرى، قال عدي بن حاتم: "يا رسول الله إنّ أبي كان يصل

الرّحم ويفعل، ويفعل، فهل له في ذلك، يعني أجر، قال: "إنّ أباك طلب شيئاً فأصابه" (الإمام أحمد بن حنبل، ب. ت، ١٧٧٩٨).

ذكر ابن كثير أنّه كانت لحاتم مآثر وأمور محبّبة وأخبار مستغربة في كرمه، لكن لم يكن يقصد بها وجه الله والدّار الآخرة، وإنّما كان قصده السّمعة والذّكر الحسن، وذكر حاتم عند النّبي × فقال: "ذاك أراد أمراً فأدركه" (ابن كثير: ٢٠٠٦، ٢ / ٢٢٦ (حديث غريب)، قال الدّار قطني: "تفرّد به عبيد بن واقد عن أبي نصر الناجي ").

أراد حاتم الحمد والثّناء والسّمعة الطّيبة (الطّائي، ١٩٨٦، ص ٤٢، وينظر، ص ٣٥)، وفي ذلك تأكيد على أنّه لم يُرد وجه الله من كرمه، وإنّما الذّكر الحسن والسّمعة الطّيبة، وقد حقّق ما أراد، لكنّه كان عفيف النّفس والطّباع، وأغلب الظّن أنّه أدرك أهمية الانتماء الدّيني، وأنّه ينتمي لدين أسهم في تكوينه العقلي، وفي توجيه سلوكه إلى مكارم الأخلاق الّتي تربّى عليها في مدرسة الأخلاق التّربويّة آنذاك كغيره من العرب بغض النّظر عن الاختلاف في التّوجيهات، والانتماء إلى القبيلة.

لقد أدرك أهمية الانتماء في رسم الحدود الفاصلة بين الجماعات القبليّة، إذ قال (من الطّويل):

إِلَهُهُمُ رَبّي، وَرَبّي إِلَهُهُم ... فَأَقسَمتُ لا أَرسو وَلا أَتَمَدَّدُ

(الطّائي، ١٩٨٦، ص ٣١)

يروي القاضي التّنوخي عن أبي صالح قال أنشدني ابن الكلبي لحاتم هذا البيت. والمرسو لفظ السين والصاد زاياً. أتمعد: أي لا أتزيأ بزيّ معد ولا ألفظ لفظها) فهو لا يريد أن يقلّد معدّ بلهجتها، ممّا يؤكّد وجود صراع ديني بين القبائل، وأنّ كلّ فرد من القبيلة يتمسّك بانتمائه لها، فحاتم يقسم أنّه يؤكّد على هذا الانتماء الدّينيّ.

ومع ذلك فقد وجد التّقارب الفكري بين القبائل آنذاك والتّسامح الدّينيّ، وكان المظهر الرّئيسي لهذا التّقارب بين المنتمين إلى الأديان الجاهليّة هو الإيمان بالله الواحد، رب الكون، وخالقه، فالله الواحد الباقي، وله السّيطرة على البلاد والعباد، فالأرض بلاد الله ﷻ يقول حاتم:

إن كنتَ تزعمُ أنَّ الأرضَ واسعة ... فيها لغيرك مرتاد ومرتحلُ

فَارحَل فَإِنَّ بِلادَ اللَهِ ما خُلِقَت ... إلّا لِيُسلَكَ مِنها السَهلُ وَالجَبَلُ

(الطّائي، ب. ت، ص ٢٨٤)

وقد أسهم الانتماء والتّسامح الدّينيّ في توجيه سلوك حاتم نحو إقامة العدل ومحاربة الظّلم، والعفو، كما ذكرنا في الانتماء النّسبيّ (يُنظر، الطّائي، ١٩٨٦، ص ٦١ - ٦٢).

إنّه يعفو ويصفح، ويحافظ على حسبه ونسبه، ودينه الّذي ارتضاه، وعلى القيم والمبادئ الّتي آمن بها وقدّسها، فكان انتماؤه كاملاً متكاملاً، صادقاً، نابعاً من قلب مفعم بحب العشيرة والقبيلة.

## الخاتمة

توصل البحث إلى النتائج الآتية:

١- أدرك شاعرنا ظاهرة الانتماء معنىً، لا اسماً كغيره من شعراء العرب في عصر ما قبل لإسلام.

٢- تداخلت الانتماءات عنده كغيره من شعراء عصره، وتفاعلت، فكان انتماؤه كاملاً متكاملاً.

٣- عظّم الانتماء النّسبيّ الأبويّ الصريح، فهو الملاذ الأفضل، الذي يُوجب على المنتمين التّناصر والتّكافل، ويبعث في نفوسهم الفخر بالآباء والأجداد والاقتداء بهم.

٤- تطورت الانتماءات عنده، وتجاوزت الانتماء النّسبيّ.

٥- حاتم قياديّ مخلص، وسياسيّ محنّك، تنامى عنده الشّعور القوميّ إلى درجات متقدّمة، سياسياً واجتماعياً، واقتصادياً، وتهمّه مصلحة القبيلة، يُقدّم المصلحة العامّة على الخاصّة، إذ لا مانع عنده من إعطاء السّيادة لغيره، ولن يتخلى عن قومه إذا اختاروا غيره.

٦- تحدّيه الإرادة الملكيّة بإظهار القوّة الرّادعة دليل على ثقته بنفسه وبقبيلته، وتعبير عن صدق انتمائه السّياسيّ، ورفضه لأي مستعمر دخيل يسوم قبيلته سوء العذاب والذّل، وفي ذلك درس تربويّ سياسيّ..

٧- أسّس قيماً جديدة، هذّبت سلوك المنتمين إلى رابطة النّسب الأبويّ، وارتفعت بهم بعيداً عن التّعصّب، ودعتهم إلى إحقاق الحقّ، وإقامة العدل، ووأد الخلافات، والتّسامح الدّينيّ.

٨- اعتزال قومه زمن حرب الفساد، اعتزال سياسيّ نابع من نظرة ثاقبة، وعمق استراتيجي ناضج، فقد كان يملك إحساساً بالمسؤولية تجاه قومه، وقد أسهم ارتحاله في ظهور انتماءات متطوّرة تجاوزت إطار الانتماء إلى أهله، فاتّسعت علاقته بمن جاورهم، وازدادت عمقاً لاعتزازه بهم.

٩- مجاورته لقوم آخرين فيه امتداد مكانيّ واجتماعيّ، وانتماء متطوّر يتجاوز الإطار الضّيق للانتماء إلى الجماعة الأبويّة، فالأرض ليست ملكاً لقبيلته، أو ملك، إنّها أرض الله.

١٠- اتّساع الجهود المطوّرة للحياة السّياسيّة، والاجتماعية، فهو سيد كريم يمتلك قدرات قيادية، عمّقت علاقته بأهله، وحطّمت الفوارق الطّبيعيّة من أجل حياة كريمة آمنة.

١١- يُفترض أن يكون الانتماء النّسبيّ والمكانيّ أقوى الانتماءات، لكنّ الانتماء السّياسيّ والاجتماعيّ كانا أكثر حضوراً عنده.

١٢- تفاعل الانتماء السّياسيّ والاجتماعيّ مع الانتماء الدينيّ في بوتقة ميثاق أخلاقي يدعو إلى التّسامح الدّينيّ، ونبذ الخلافات والصّراعات، وإلى العدل، والإحسان، وحسن الجوار.

١٣- معظم قصائده نظمها على البحر الطّويل.

## المصادر والمراجع


- القرآن الكريم.

١. اسليم، د. فاروق أحمد. (١٩٩٨م)، الانتماء في العصر الجاهليّ. اتحاد الكتاب العرب.

٢. الأصفهاني، أبو الفرج عليّبن الحسن بن محمّد القرشيّ. (ت ٣٥٦ هـ)، (١٤١٢ه – ١٩٩٢م) الأغاني. شرحه وكتب هوامشه الأستاذ عبد، أو على مهنا، ج١٧، ط ٢، بيروت، لبنان: دار الكتب العلميّة.

٣. بدوي، د. أحمد زكي. (ب. ت.)، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية. بيروت: مكتبة لبنان.

٤. ابن بكّار، الزّبير. (١٩٧٢م)، الموفّقيّات. تحقيق سامي العاني، بغداد.

٥. الجابري، محمّد عابد. (١٩٩٢م)، فكر ابن خلدون (العصبيّة والدّولة)، ط ٥، بيروت، لبنان: مركز دراسات الوحدة العربيّة.

٦. الجبوري، د. يحيى وهيب. (١٩٩٣م)، الشّعر الجاهليّ خصائصه وفنونه. ط ٦، بنغازي، ليبيا: منشورات جامعة قاريونس،

٧. الحموي، ياقوت شهاب الدّين ياقوت بن عبد الله. (١٣٩٧ه - ١٩٧٧ م)، معجم البلدان. بيروت، لبنان: دار صادر.

٨. ابن حنبل، أحمد. (ب. ت.)، مسند الإمام أحمد بن حنبل. بيروت، لبنان: المكتب الإعلامي للطّباعة والنّشر، دار صادر للطّباعة والنّشر.

٩. ابن خلدون، عبد الرّحمن. (ت ٨٠٨ هـ)، (١٩٧٨م)، مقدّمة ابن خلدون. ط ١، دقّة، د. محمّد علي، بيروت، لبنان: دار القلم.

- ابن خلدون، عبد الرّحمن. (١٩٨٩م) السّفارة السّياسيّة وأدبها في العصر الجاهليّ. ط ٢، دمشق، سوريا: دار العلم.

١٠. روميّة، د. وهب أحمد. (١٩٧٨م)، شعرنا القديم والنقد الحديث. الكويت: دار المعرفة.

١١. الزّمخشري، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر بن أحمد. (ت ٥٣٨ه)، (١٤١٩ه – ١٩٩٨م)، أساس البلاغة. تحقيق محمّد باسل عيون السّود، ط١، ج٢، بيروت، لبنان: دار الكتب العلميّة.

١٢. شيخو، لويس. (١٩٨٠م)، شعراء النّصرانية قبل الإسلام. ج١ (شعراء الجاهليّة)، بيروت.

١٣. الصّافي، حبيبة. (٢٠١١)، سيميائيات إيدلوجيّة. ط ١، محاكاة للدّراسة والنّشر والتّوزيع.

١٤. الطّائي، حاتم بن عبد الله بن سعد. (ت ٥٧٨م)، (١٤٠٦ه – ١٩٨٦م) ديوانه. ط٢، بيروت، لبنان: دار ومكتبة الهلال.

- الطائي، حاتم. (ب. ت.) ديوان شعر حاتم بن عبد الله الطائي وأخباره. صنعة يحيى بن مدرك الطّائي، رواية هشام بن محمّد الكلبي، دراسة وتحقيق عادل سليمان جمال، القاهرة، مصر: مطبعة المدني، العباسية.

١٥. طقوس، أ. د. محمد سهيل. (١٩٣٠ه – ٢٠٠٩م)، تاريخ العرب قبل الإسلام. ط١، دار النّفائس.

١٦. د. طه، فرج عبد القادر. (ب، ت.)، معجم علم النفس والتّحليل النّفسي. ط١، دار النّهضة العربيّة.

١٧. الفيروز أبادي، محمّد بن يعقوب. (ت ٨١٧ هـ)، (١٤٢٩ه – ٢٠٠٨م)، القاموس المحيط، القاهرة، مصر: دار الحديث.

١٨. ابن قتيبة، أبو محمّد عبد الله بن مسلم الدّنيوي. (ت ٢٧٦ هـ)، (١٣٧٧ه - ١٩٥٨م)، الشّعر والشّعراء. تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر، دار المعارف.

١٩. ابن كثير، الحافظ بن كثير الدمشقي. (ت ٧٧٤ه)، (١٤٢٧ه – ٢٠٠٦م) البداية والنهاية. ج٢، تحقيق أحمد جاد، القاهرة، مصر: دار الحديث.

٢٠. الكلبي، أبو المنذر هشام بن محمّد السّائب. (١٩٩٥م)، الأصنام. تحقيق الأستاذ أحمد زكي باشا، ط٣، القاهرة، مصر: مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة.

٢١. الكلبي، (١٩٨٨م)، نسب معن واليمن الكبير. تحقيق: ناجي حسن، بيروت، لبنان: مطبعة عالم الكتب.

٢٢. مجمع اللّغة العربيّة. (١٤٢٥ه – ٢٠٠٤م)، الإدارة العامة للمعجمات وإحياء التّراث، المعجم الوسيط، ط ٤ مكتبة الشّروق الدّوليّة.

٢٣. ابن مسكويه، أبو عليّ أحمد بن محمّد. (ت ٤٢١ه)، (١٤٠١ه – ١٩٨١م)، تهذيب الأخلاق في التّربية. بيروت، لبنان: دار الكتب العلميّة.

٢٤. ابن منظور، جمال الدّين محمّد بن مُكرَّم الأنصاري. (ت ٧١١ هـ)، (ب. ت.) لسان العرب. طبعة مصوّرة عن طبعة بولاق، مصر: المؤسّسة المصريّة العامّة للتّأليف والأنباء والنّشر، الدّار المصريّة للتّأليف والتّرجمة.

٢٥. الميداني، أبو الفضل أحمد بن إبراهيم النيسابوري. (ت ٥١٨ هـ)، (١٣٧٤ هـ - ١٩٥٥ م)، مجمع الأمثال. حقّقه وفصّله وضبط غرائبه وعلّق حواشيه محمّد محيي الدّين عبد الحميد، دار المنشأ المحمدية.

٢٦. النّابغة الذبياني، زياد بن معاوية بن ضباب. (ت ١٨ ق. هـ)، (١٩٩٨م)، ديوانه. صنعه ابن السّكّيت، تحقيق د. شكري فيصل، بيروت، لبنان: دار الفكر.

٢٧. النّص، د. إحسان. (١٥ كانون الثّاني ١٩٦٣م)، العصبيّة القبلية وأثرها في الشّعر الأموي. لبنان: دار اليقظة العربيّة للتّأليف والتّرجمة والنّشر.

٢٨. ابن هشام، عبد الملك الحميري. (ت ٢١٨ هـ)، (١٤٢٣هـ- ٢٠٠٢م)، السّيرة النّبويّة. تحقيق كامل محمّد عويضة، ط٤، مصر: دار العنان بالقاهرة.

❊ ❊ ❊ ❊